# نبـذة تاريخية

عاش الإنسان الأول فى نظام الشيوعية البدائية ، فكل شىء مباح ومتاح للجميع حتى المرأة . بدأ هذا النظام فى الاختفاء مع ظهور المدنية ، وسكن الإنسان فى تجمعات متقاربة ، خاصة فى أوقات القحط التى يندمج فيها الفرد فى جماعته مدفوعا بعامل الخطر المشترك الذى يهدد الجميع بالموت جوعا ، أو من أجل الحماية من ضرارى الغابات ووحوش الصحراء . كانت الشيوعية تنتهى حين يبدأ الترف ، فالتماسك الاجتماعى بين الأفراد تقل شدته بمقدار ما تزداد الفردية . لقد كانت اليوتوبيا أو الشيوعية المثالية حلما كامنا داخل الإنسان لأنه ذكرى انتقلت من الأسلاف ، حيث كانت الحياة سليمة وبسيطة وأقرب إلى المساواة ، وحيث ينعدم قلق الخوف من الجوع أو الحماية من المجهول ، فنظام التعاون والتكافل يؤمن الإنسان – إلى حد كبير – ضد تقلبات وغدر الطبيعة .

فى قديم الزمان كانت الحاجات الأساسية للإنسان لا تزيد عن مأوى بسيط وإشباع جوع أو رغبة جنسية ، فالهدف الرئيسى للتنظيم الاجتماعى هو تهيئة الموارد من أجل الدوام البيولوجى من خلال الحصول على الطعام عن طريق الزراعة الأولية أو الصيد ، أو من خلال الاتصال الجنسى لإنجاب الأبناء . ظلت القبيلة – قبل قيام الدولة – تنظم العلاقات الاجتماعية بين الأفراد بعضهم البعض ، وبين الأسر المختلفة . كانت الأسرة – وما زالت – هى نواة المجتمع ، وإن كانت تعيش متفرقة فى العصور القديمة ، رحالة فى مرحلة الصيد ، ساكنة فى مكان واحد فى مرحلة الزراعة . فى تلك المراحل القديمة، كان يقتضى على الأم أن تقوم بالعناية بالأبناء بجانب زراعة الأرض المحيطة بالخيمة أو المنزل ، أما الأب فقد كانت مهمته هى صيد حيوان من حين لآخر . كانت مهمة الأم هى الأساسية ، حيث لم يكن يعرف

– فى ذلك الوقت – أن للرجل دورا فى الإنجاب ، لذلك كان الطفل ينسب للأم ، وكانت المرأة لا تنتمى إلى زوجها / رجلها ، بل إلى أبيها أو أخيها . كان الزوج فى كثير من الحالات يقيم مع أسرة أمه وقبيلتها ، لا يرى امرأته إلا زائرا ، حتى فى المدينة القديمة كان الأخ أعز عند المرأة من زوجها ، فلا غرابة أن الرجل عند قدماء المصريين ينادى حبيبته بكلمة « أختى » ، والمرأة تدعو حبيبها بكلمة « أخى »، فكلمة حبيبة أو حبيب لم تكن معروفة فى ذلك الوقت .

كتب ول ديورانت فى موسوعة « قصة الحضارة » عن التكوين الأسرى ودور المرأة فيه قبل نشأة الحضارات القديمة: (أبسط صور العائلة هى الأم وأبناؤها تعيش بهم فى كنف أمها أو أخيها فى القبيلة، وهذا النظام نتيجة طبيعية للأسرة عند الحيوان، التى تتكون من الأم وصغارها ... وكان لهذا النظام العائلى بديل آخر فى العهد الأول، وهو الزواج الذى يضيف الزوج إلى أسرة زوجته ، إذ يقضى هذا النظام أن يهجر الزوج قبيلته ليعيش مع قبيلة زوجته وأسرتها ويعمل من أجلها أو معها فى خدمة والديها ، فالإنسان فى هذه الحالة يقتفى أثره فى جانب الإناث ، والتوريث يكون عن طريق الأم.... كانت المرأة فى مرحلة الصيد تكاد تؤدى الأعمال كلها ماعدا عملية الصيد نفسها ، وأما الرجل فكان يسترخى مستريحا معظم العام فى شىء من الزهو بنفسه ، لقاء ماعرض نفسه لمصاعب الطراد وأخطاره ، كانت المرأة تلد الأطفال بكثرة وتربيهم وتحفظ الكوخ أو الدار فى حالة جيدة ، وتجمع الطعام من الغابات والحقول وتطهو وتنظف وتصنع الثياب والأحذية ... إن ما نراه بين الرجال والنساء اليوم من تفاوت فى قوة البدن لم يكد يكون له وجود فيما مضى ، وهو الآن نتيجة البيئة وحدها أكثر منه أصيلا فى طبيعة المرأة والرجل ، كانت المرأة إذ ذاك – لو استثنيت ما يقعدها أحيانا من عوامل بيولوجية – مساوية للرجل تقريبا فى طول قامته ، وفى القدرة على الاحتمال وفى سعة الحيلة والشجاعة ، ولم تكن قد أصبحت مجرد زينة وتحفة ، أو مجرد لعبة جنسية ، بل كانت حيوانا قوى البنية قادرا على أداء العمل الشاق مدى ساعات طويلة ، بل كانت لها القدرة – إذا دعت الضرورة – على

المقاتلة حتى الموت فى سبيل أبنائها وعشيرتها ... إن معظم التقدم الذى أصاب الحياة الاقتصادية فى المجتمع البدائى كان يعزى للمرأة أكثر مما يعزى الرجل ، فبينما ظل الرجل قرونا طويلة متمسكا بأساليبه القديمة من صيد ورعى ، كانت هى تطور الزراعة على مقربة من محال السكن ، وتباشر الفنون المنزلية التى أصبحت فيما بعد أهم ما يعرف الإنسان من صناعات ) . كانت المرأة فى العهود الماضية ، تغزل وتخيط وتنسج الثياب القطنية ، فهى التى تقدمت بتقنية الحياكة وصناعة السلال والخزف وأشغال الخشب ، بل كانت أيضا لها دور فى الأعمال التجارية وتبادل السلع . استطاعت المرأة استئناس الحيوانات ، وتدريب بعضها للمساعدة فى أعمال الحقل ، لذا يمكن اعتبار الحضارة الإنسانية من عمل المرأة وجهدها .

لم يكن الإنسان – لاسيما النساء – يعشن عمرًا طويلاً خاصة فى المجتمعات الزراعية البدائية . ففى التنقيب فى بعض الحفريات بأوروبا وآسيا ، عثر فيها على ستة وسبعين هيكلاً عظميًا بمستوطنات أنشئت منذ عشرة آلاف عام ، أظهرت هذه الحفريات صورة مروعة لمتوسط العمر فى ذلك الوقت ، لقد كان من وصل عمر الواحدة والعشرين منهن يمثل نسبة تقل عن النصف ، من بينهن ١٢٪ فقط من تجاوز عمرهن الأربعين ، ولم تكن امرأة واحدة قد بلغت سن الثلاثين ، قد يكون تكرار الحمل والولادة ، بالإضافة إلى المجهود الكبير الذى قامت به الأنثى فى المنزل والحقل وراء تدهور صحة المرأة وموتها فى سن مبكرة . وتبدل الحال فى الزمن الحالى، فأصبح متوسط عمر المرأة أكبر من متوسط عمر الرجل ... ولكن ماذا سيكون عليه المستقبل بعد ما زاحمت المرأة ملعب الرجل ومحور حياته وهو العمل ، واتجاهها – إلى حد ما – إلى العمل الشاق وأنواع الرياضة العنيفة .

عندما زادت رقعة الأرض الزراعية ، وعرف الإنسان نظام الرق ، واستخدام العبيد فى الزراعة، وبعدما انتشرت التجارة ، اضطر الرجل إلى السفر بعيدا عن أسرته، تاركا زوجته لرعاية المنزل والأبناء، والإشراف على العبيد فى زراعة الأرض، حينئذ استولى الرجال على زمام القيادة والريادة، وانتزع بجدارة الزعامة التى تربعت

عليها المرأة عصورا طويلة . إذا كانت المرأة قد استأنست الحيوانات، فإن الرجل قد استخدم هذه الحيوانات فى الزراعة كبديل للمرأة ، كما استطاع بقوته العضلية استعباد آخرين من الرجال للعمل فى حقله . تمكن الرجل من إخضاع المرأة له ، طالبا منها الإخلاص التام، ثم فكر فى حجبها وإجبارها فى الكمون فى المنزل لرعاية شئون وتربية أبنائه ، وبالتدريج تغيرت الأمور وأصبحت السيطرة كاملة للرجل . أصبحت الأسرة أبوية ، يحكمها الوالد أو الأخ ، ثم الزوج بعد ذلك ، وتحولت المرأة إلى جارية يمكن بيعها وشرائها ومبادلتها ، وهبط ميراثها وخفت نفوذها وتأثيرها الأسرى. وظل هذا الوضع قائما فى جميع الثقافات البشرية – شرقا وغربا – حتى بدأت الثقافة الغربية فى العقود الأخيرة المطالبة بنزع التميز الجنسى ( ذكرى / أنثوى) فى المعاملة اليومية وفى تسيير الأمور الحياتية . حاولت هذه النظرة غير التميزية أن تتغلغل فى الثقافة الشرقية ، فحدث الصراع مع الرجل الذى وجد أنه من الصعب سيكولوجيا التنازل عن سلطته وتميزه ، وتوارت المرأة فى المنزل،أو وراء الحجاب خارجه . ومازال الصراع قائما فى سلسلة أحداث تاريخية / ديناميكية فى منظومة بشرية لاتعرف ثبات الحال .

ذهب عالم الأنثروبولوجيا الأمريكى لويس مورجان فى القرن التاسع عشر إلى وجود رابطة قوية بين الملكية الخاصة ووضع المرأة ، لذا جاهد الرجل لعزلها وتغليفها بثياب كثيفة حتى لايظهر من جسدها شىء يدعو للإثارة والفتنة وجذب الرجال . كانت نظرة الرجل للمرأة تنصب على أنها وعاء لتفريغ الشهوة الذكورية ، وأنها يجب أن تظل نقية ومخلصة للرجل حتى يضمن سلالة نقية من صلبه ، يحملون اسمه ويرثونه بعد وفاته . كانت المرأة ملكية خاصة للرجل تذهب إلى الأبناء كميراث بعد وفاة الأب ، كما كان الحال فى الثقافة الإغريقية والرومانية ، أو تدفن حية كما كانت العادة فى الثقافة الهندية . كتب الدكتور إمام عبد الفتاح فى كتاب «الفيلسوف المسيحى والمرأة » فى هذا المجال : ( إن هذه القيود التى فرضها المجتمع الأبوى على المرأة من أجل توريث الملكية الخاصة لم تكن معروفة فى المجتمعات التى

سادتها شيوع الملكية ، فكان كل شيء فيه مشاعا بين أفراد القبيلة ، ومن ثم قيل إن هذه المجتمعات نفسها سادتها الشيوعية الجنسية أيضا : فلا أهمية للحجاب ، ولا لتغطية الجسد كله أو بعضه.... يشهد على ذلك أيضا حق الليلة الأولى – أى معاشرة رئيس القبيلة أو الكاهن أو الساحر للعروس فى الليلة الأولى لزواجها – وحق الليلة الأولى كان حقا مكفولا يستمتع به الرجل الإقطاعى طوال عهود الإقطاع بالنسبة للجوارى فقط فى مقابل أن يترك احدى جواريه تخرج من إساره وتتزوج. كما تشهد عليه أيضا عادة تقديم الزوجات إلى الضيوف ، وهى عادة شهيرة مارستها شعوب بدائية كثيرة مثل الإسكيمو . وهى عادة كان لدى العرب عادة شبيهة بها فى الجاهلية تحت أسم « الاستبضاع »: وعندما يريد الرجل أن يكون له ولد نجيب أو شجاع ، يطلب من زوجته أن تذهب إلى من اشتهرت عنه هذه الصفة «النباهة – الفحولة – جمال الجسم .... الخ» لتستبضع منه ، فإذا ولدت نسب الولد إلى زوجها . وهى عادة عرفت أيضا فى أسبرطه ، حيث كان مشرعهم الأكبر ليكورجوس يسخر من الغيرة ومن احتكار الأزواج لزوجاتهم ) .

كانت المرأة فى مصر الفرعونية تتمتع بحريتها كاملة ، تخرج من منزلها دون رفيق أو رقيب ، وتتنزه وتزور من تشاء دون أن يعترض سبيلها زوج أو قريب ، وتتجول سافرة الوجه وتساهم بنصيب ملموس فى الحياة الاجتماعية . كانت المرأة من عامة الشعب – ومازالت – تذهب إلى الأسواق تبيع وتشترى ، وتساعد زوجها فى حقله ، وتخرج معه لزيارة الأقارب والأصدقاء . تعجب المؤرخ اليونانى هيرودت من نطاق الحرية الممنوحة للمرأة المصرية عندما زار مصر فى القرن الخامس قبل الميلاد ، فقد تعود على رؤية المرأة الإغريقية كامنة فى المنزل ، ومتوارية عن الرجال . عن المرأة المصرية فى العصر الفرعونى : كتبت باسمة كيال فى كتاب « تطور المرأة عبر التاريخ » : ( مما يلفت النظر أن الحجاب قد عرف طريقه إلى مصر فى بعض العصور . ولا شك أن هذه العصور هى تلك التى تميزت بالاضطرابات والفتن الداخلية ، أو تلك التى خضعت فيها مصر للغزو الأجنبى . ففى مثل هذه الظروف

لم تكن المرأة تأمن على نفسها إذا خرجت ، لذلك كانت تقبع فى بيتها ، وإذا أحبت الخروج منه تخفت فى ثيابها فأمنت التعرض لها . ويدلنا على ذلك بعض النقوش التى تعود إلى عهد رمسيس الثالث يفخر فيها بالانتصار على أعدائه ، وإقرار الأمن فى ربوع البلاد ، وقد جاء فيها : لقد أمكن كل امرأة الآن أن تسير خارج منزلها كما تريد رافعة قناعها بلا خوف ولا وجل . لأنه لم يعد أحد يتعرض لها ... لقد جعلت المرأة المصرية تذهب كما تشاء مكشوفة الأذنين فلا يتعرض لها أجنبى أو غيره ) .

ومن تبجيل المصرى القديم للمرأة جعل إيزيس من أشهر الآلهة المصرية، فقد كانت مثال الزوجة الوفية لزوجها أوزيريس ، والأم المخلصة لأولادها . تذهب الأسطورة إلى أن إيزيس قد استعادت جثة أوزيريس بعد أن قتله إله الشر ست ، وبمساعدة نفتيس وتحوت أعادت إليه أنفاسه بحركة جناحيها . بعد رحيل أوزيريس إلى حياة جديدة وقصيرة فى العالم الآخر ، قامت إيزيس بتربية ابنها حورس فى أجمة مستنقعات خيميس . امتدت عبادة إيزيس كربة للحنان والوفاء بعد انتهاء عصر الفراعنة وحلول عهد البطالمة اليونانين ثم الرومان ، فكان لها معابدها وكهنتها ، وأعيادها وأسرارها الدينية فى كافة أنحاء الحضارة الرومانية حيث صارت تمثل الربة العامة للكون كله ، وأما للطبيعة كلها ، وسيدة جميع عناصر الكون ، ومنشأ الزمان ومنبع القوة . صورت نفرتيتى الذى يعنى اسمها «المرأة الجميلة قد حضرت» الجمال المصرى الفرعونى . كانت نفرتيتى زوجة فرعون مصر أخناتون ، وقد أضفت عليها عبادة الشمس التى نادى بها زوجها هالة من المجد والاحترام ، فقد نقشت صورتها على لوحات معابد أتون وعلى كثير من أعمال النحت . تبدى بعض نقوش المعابد الفرعونية نفرتيتى جالسة فى سعادة فوق ركبة أخناتون أو هى تطبع على وجنتيه قبلة ، أو هى تلعب مع إحدى بناتها .

وفى الحضارة السومرية – جنوب العراق – كان يلتحق بالهياكل التى يمارس فيها المراسم الدينية، عدد من النساء منهن خادمات ومنهن سرارى ، يعملن من أجل الكهنة – ممثلى الآلهة – الذين يقومون مقامهم على الأرض . لم تكن الفتاة

السومرية ترى شيئا من العار فى أن تخدم الهيكل المقدس ، وكان أبوها يفخر بأن يهب جمالها ومفاتنها لتخفيف ما يعترى حياة الكهان من وحدة وملل ، وكان يحتفل بإدخال ابنته فى هذه الخدمة المقدسة. كان الزواج فى تلك الحضارة يلتزم بنظم معقدة تحوطه شرائع كثيرة ، فكانت الفتاة إذا تزوجت تحتفظ لنفسها بما يقدمه أبوها من بائنة ، وبالرغم من أن زوجها كان يشترك معها فى القيام على هذه البائنة ، فقد كان لها وحدها أن تقرر من يرثها بعد وفاتها . فى هذه الحضارة ، كان للمرأة من الحقوق على أولادها ما لزوجها نفسه . وفى غياب الزوج ، وفى حالة عدم وجود ابن كبير يقيم معها كانت المرأة تدير أمور الحقل والتجارة كما تدير المنزل ، وكان لها أن تشتغل بالأعمال التجارية مستقلة عن زوجها وأن تحتفظ بعبيدها أو تطلق سراحهم. غير أن الرجل كان هو السيد المسيطر ، وكان من حقه فى بعض الظروف أن يقتل زوجته أو يبيعها مثل الجارية وفاء لما عليه من ديون. لم تكن القوانين تطبق بالتساوى على الجنسين ، فزنى الرجل كان يعد من النزوات التى يمكن الصفح عنها ، أما زنى الزوجة فكان عقابه الإعدام . كان ينتظر من المرأة أن تلد لزوجها وللدولة الكثير من الأبناء ، فإذا كانت عاقرا جاز طلاقها ، وإذا كرهت أن تقوم بواجبات الأمومة ، فكانت تقتل غرقا . من جهة أخرى كانت نساء الطبقات العليا يحيين حياة مترفة ، فقد وجدت فى مقابرهن الكثير من الجواهر والأصباغ وأدوات الزينة .

يعتبر الأشوريين – فى شمال العراق – من أقدم الشعوب التى أخضعت النساء للحجاب ، وذلك ما أكدته الحفريات فى آشور القديمة حيث عثر على لوحات طينية تعود إلى القرن الثانى عشر قبل الميلاد تحتوى على قواعد قانونية أقدم من ذلك عهدا. فى إحدى فقرات اللوحة الأولى يوجد بيان مفصل عن نظام الحجاب الذى كان مطبقا على الحرائر ، دون الإماء والعاهرات ، وكانت توقع على الأمة أو العاهرة التى تتحجب عقوبات شديدة تصل إلى الجلد وصب القطران على الرأس . وكان من الواجب على كل مواطن يشاهد أَمة أو عاهرة متحجبة أن يقبض عليها ويأتى بها إلى محكمة القصر، وكان يكافئ على عمله بمنحه ثيابها . أما إذا شاهد مواطن أَمة أو

عاهرة متحجبة ولم يقبض عليها تعرض هو للعقاب . فكان يجلد خمسون جلدة وتثقب أذناه وتربطان بخيط يعقد عند ظهره ، ويأخذ من أقام عليه الدعوى ثيابه ويسخر فى خدمة الملك شهرا . ويذهب العرف على أن الأَمة إذا خرجت مع سيدتها وجب عليها التحجب ، وكذلك تفعل العاهرة والداعرة إذا تزوجت . وتبين فقرة أخرى فى نفس اللوحة الإجراءات التى ينبغى اتباعها عندما يريد الرجل إعطاء سريته صفة الزوجة ، فينبغى عليه أن يستدعى خمسة من معارفه ويحجبها أمامهم ، معلنا أنها زوجته .

كانت المرأة فى الحضارة الإغريقية فى مراحلها الأولى مسلوبة الحرية والإرادة ، لا يسمح لها بمغادرة المنزل ، كائنة فيه ترعى الأولاد وتنتظر وصول الزوج صاحب الإرادة والقوة والمسيطر عليها . أما من الوجهة القانونية فقد حرمها القانون اليونانى حقها فى الإرث ، فأصبحت لا قيمة لها فى المجتمع من الناحية الاجتماعية والشرعية ، ولا يجوز لها أن تحصل على الطلاق ، بل تظل خادمة مطيعة لسيدها ورب بيتها فى حالة هجره لها . ولكن فى إسبرطة فقد منحت المرأة بعض الحقوق المدنية المتعلقة بالإرث وأهلية التعامل مع المجتمع ، وذلك بسبب وضع المدينة الحربى حيث كان الرجال مشغولين بخوض المعارك مما أفسح المجال أمام المرأة لتخرج من عزلتها فى بيتها لشراء حاجاتها فى أثناء غياب زوجها . حمل الفيلسوف الإغريقى على رجال إسبرطة واتهمهم بالتساهل مع نسائهم ، ورد سقوط إسبرطة واضمحلالها إلى حرية المرأة والإسراف فى الحقوق التى نالتها . لما أخذت الحضارة الأغريقية تتطور وتتقدم تبدلت أوضاع المرأة فراحت ترتاد الأندية وتختلط بالرجال مما أدى إلى انتشار الفسق والفجور ، واعتبرت دور البغايا مراكز للمنتديات السياسية والأدبية ، واتخذت تماثيل النساء العاريات مقياسًا للفن الراقى . مثل حضارات بين النهرين فقد فرضت أثينا ومعظم بلاد اليونان الحجاب على النساء الحرائر ورفعته عن الإماء والبغايا . كان حجاب المرأة يغطى الوجه كله ، فلم يكن يرى منها سوى العينين . ومن جهة أخرى طالب الفيلسوف اليونانى الشهير أفلاطون بوجوب منح المرأة

اليونانية كامل حريتها ، وإتاحة الفرصة أمامها لتنهل من الثقافة والعلوم حتى تتمكن من أداء واجبها الوطنى ، وتقدم نفس الخدمات التى يؤديها الرجل ، كما نادى أفلاطون بأن تكون المدارس ودور العلم مشتركة بين الجنسين .

بدأت الحضارة الرومانية فى الظهور والعلو حتى تسلطت على العالم الغربى فى القرنين الأول والثانى قبل الميلاد . حصلت المرأة فى الحضارة الرومانية القديمة على بعض حريتها بعكس ماكانت عليه المرأة الإغريقية ، وبرغم حصولها على هذه الحقوق إلا أنها كانت خاضعة لسلطة رب العائلة إذا كانت غير متزوجة ، ولسلطة وسيادة زوجها عليها إذا كانت متزوجة . كانت المرأة الرومانية لها الحق فى الخروج للقيام بالزيارات والمشتريات ، كما كان لها الحق فى التجوال داخل المدينة بشرط أن تأخذ إذنا مسبقا من زوجها أو ولى أمرها . تعتبر المرأة فى القانون الرومانى من الأمور الهامشية نظرا لانعدام أهليتها التى أعطيت لولى أمرها . ومع تطور الحضارة الرومانية أخذت المرأة فى الحصول على بعض حقوقها تدريجيا حيث أعطيت الحق فى التصرف بأموالها الخاصة ومتاعها دون إجازة مسبقة من ولى أمرها ، كما أصبحت لها الحق فى اختيار زوجها . وعلى الرغم من تطور الحضارة الرومانية ، فقد ظل الرجل ينظر إلى المرأة كما ينظر إلى الرقيق والجوارى .

ذهبت شريعة «مانو » فى الهند الى عدم حصول المرأة على أى حق من زوجها أو أبيها أو ولدها . وإذا مات الزوج فيجب على الزوجة أن تنتمى إلى رجل من أقارب زوجها وتخضع لحكمه كما كانت تخضع لحكم زوجها قبل وفاته . أما إذا مات الزوج ولم يوجد قريب له ، فإنها كانت تحرق حية على أتون واحد، وظلت هذه العادة القاسية قائمة من عهد الحضارة البراهمية وحتى القرن السابع عشر حيث انتهت بواسطة الاستعمار الإنجليزى ، على كره من رجال الدين وزعماء الهند المحليين . فى سالف الزمان كانت الفتاة فى الهند – ومازالت – وقفا للآلهة ، وكانت العادة أن تظل كصورة للزواج تحت اختيار الآلهة فى المعابد . كان الرجال يسمحون أيضا للنساء المتزوجات بأن يكن فى خدمة الآلهة والمسئولين عن المعابد . وفى الحروب كانت

النساء تعتبر جزءا من الغنائم ، فتصبح من العبيد للجنود المنتصرين . كانت الأساطير الهندية ترى أن المرأة ليست سوى بئر للأرواح الشريرة والخبيثة ولدت على هيئة امرأة .

استمدت الثقافة الصينية القديمة من الحكم الإقطاعى ، ومن آراء فيلسوف الصين كونفوشيوس الذى كان يعلم الناس الطاعة والامتثال والحفاظ على التقاليد. عرفت المرأة فى الأدب الصينى بأنها مذلة من الرجل ، وسميت فى الكتب الدينية القديمة «المياه المؤلمة التى تمحو السعادة والمال» . لم يكن للمرأة أى حق من الحقوق، وكان فى إمكان الرجل أن يبيعها كالجارية . أما الأرملة فكانت جزءا من الثروة المتعلقة بعائلة زوجها يتصرف فيها الورثة من الرجال كيفما شاءوا ، ولم يكن لها حق الزواج مرة ثانية بعد وفاة زوجها . وصل إهدار وضع المرأة إلى حق الزوج فى دفنها وهى حية دون أى اعتراض من عائلتها أو من أى جهة رسمية ، وحتى منتصف القرن الماضى كان فى الصين حوالى ثلاثين مليون جارية.

كان اليهود الأوائل يعتبرون المرأة لعنة استنادا على ما ورد فى التوراة وبعض كتبهم المقدسة ، لذلك ذهبت بعض الطوائف اليهودية إلى اعتبار المرأة دون مرتبة أخيها ومكانته فى الحياة الاجتماعية بحيث ليس فى مقدورها أن ترث إذا كان لها أخوة من الذكور . أعطت الحكمة اليهودية القديمة الأب حق بيع ابنته القاصر ، وأما إذا كان الميراث يؤول إليها فى حالة عدم وجود أخ ذكر لها فقد حال القانون اليهودى القديم بينها وبين الزواج من سبط – فرع يهودى – آخر ، حتى لايجوز لها نقل ميراثها لغير فرعها . كان الحجاب معروفا ومطبقا عند اليهود ، ويستخدم حتى الآن عند النساء المتدينات ، ويحرم التلمود على الرجل أن ينظر إلى كعب امرأة غير زوجته أو لمس يدها ، أو الحديث معها ، كما كان يحرم على الرجل إذا تحدث إلى زوجته أن يطيل فى الحديث . وكان بعض الرجال من اليهود يرون أن المرأة هى لعنة أبدية من طرف الإله لأن الذنب قد بدأ من طرفها وهى التى تسبب للرجال الموت . وتعتبر المرأة مسئولة عما يرتكبه الرجل من أفعال شريرة ، لذلك فعندما تقع فريسة المرض

أو فى حالة الحيض ، ينبغى عليها أن تسجن نفسها فى حجرتها ولا تلمس أية آنية من أوانى البيت حتى لا ينتقل الشر إلى تلك الأوانى .

إلى حد بعيد يمكن القول أن الحضارة الغربية هى امتداد للحضارة الرومانية التى كانت هى الأخرى امتدادا طبيعيا للتراث الإغريقى بما يحمله للمرأة من كراهية ونظرة دونية . كما كتب الدكتور إمام عبد الفتاح إمام فى كتابه « الفيلسوف المسيحى والمرأة » ، وكما يمكن استبيانه من أساطيرهم التى تتعلق بالجنس الأنثوى . وبالرغم من أن المسيحية قد اشتقت من اليهودية التى كانت تتبنى النظرة الدونية للمرأة مع تغليفها بغلاف دينى مقدس ، إلا أن السيد المسيح لم ينظر إليها – كما ورد فى المرجع السابق – على أنها جسد فقط ، أو أن صورتها « عورة » ، كما لم يرفض الاختلاط بين الجنسين ، وعالج موضوع المرأة كما عالج موضوع الرجل .

لقد أعطى الدين المسيحى المرأة بعض الحقوق، وفرض عليها بعض الواجبات، فخفت من عليها القيود ، وارتفعت مكانتها إلى المكانة التى كان عليها الرجل باعتبارهما متممان بعضهما البعض . لقد جعل الدين المسيحى من المرأة شخصية مساوية مع الرجل فى الحقوق والواجبات من حيث المبدأ . أما من الناحية التطبيقية فالشريعة المسيحية والقانون الكنسى أقر للزوج الحق فى الإشراف والنيابة القانونية عن الزوجة فى إدارة أموالها ، ولا يحق للزوجة بأن تبعثر أموالها وتنفقها دون إذن مسبق من زوجها . جعلت الديانة المسيحية الميراث على أساس العلاقة الفعلية وصلة الدم ، وأعطت الحق للمرأة فى أن ترث زوجها كما للزوج الحق فى ميراثها . لقد كرمت المسيحية المرأة فى كل اتجاه ، ورفعت معنوياتها الخلقية والاجتماعية .

بعد السيد المسيح ﷺ جاء بولس الرسول، الذى كان فكرته الرئيسية عن المرأة هى :

« أن الرجل هو الوسيط بين الله والمرأة » . ويدعم هذه الفكرة النص الذى ورد فى رسالته إلى أهل كورنثوس ، حيث احتوت رسالته على حث النساء على تغطية رؤوسهن فى التجمعات المسيحية لأن الغطاء هو رمز خضوعهن للرجل ، أو كما

ورد فى الرسالة : ( إن الرجل لا ينبغى أن يغطى رأسه لكونه صورة الله ومجده . أما المرأة فهى مجد الرجل .... لهذا ينبغى أن يكون لها سلطان على رأسها) . ثم يتسائل بولس الرسول فى استنكار : وهل يليق بالمرأة أن تصلى إلى الله وهى غير مغطاة . وعلى هذا النحو يسعى القديس بولس جاهدا من أجل البحث عن مبررات لاهوتية للعادات الاجتماعية التى كانت قائمة بالفعل فى عصره .

قام الفلاسفة واللاهوتيين بعد ذلك بإضفاء صفة القداسة الدينية على هذه العادات الاجتماعية . كتب الدكتور إمام عبد الفتاح إمام فى كتابه «الفيلسوف المسيحى والمرأة » : ( إن على الرجل أن يعلم المرأة – كما يقول القديس بولس – لا العكس . والبيت – كما يقول الإمام الغزالى أيضا – هو المكان المناسب لتتعلم الزوجة من زوجها مبادئ الدين . يقول بولس : لتصمت نساؤكم فى الكنائس . أى إنه ليست مأذونا لهن أن يتكلمن ، بل يخضعن كما يقول الناموس أيضا . لكن إن كن يردن أن يتعلمن شيئا فليسألن رجالهن بالبيت... إن بولس يعبر هنا عن الفكرة اليهودية التى كانت تقول « إن صوت المرأة عورة » ، وهو ما لم يقله المسيح قط ! فضلا عن ذلك فإن القديس بولس ، يردد – من ناحية أخرى – ماكان يقوله اليونانيون من أن تاج المرأة هو الصمت، وفضيلتها الخضوع للرجل ... ويقدم مبررات دينية لهذه الظاهرة، منها أن الله خلق آدم أولاً... ومنها أن الحية أغوت حواء وليس آدم ) . يذهب بولس أيضاً إلى أن الوضع المتدنى للمرأة يتناسق تماماً مع النظام العام للكون ويقول هنا : المرأة هى مجد الرجل، لأن الرجل ليس من المرأة، بل المرأة من الرجل .

كرم الدين الإسلامى المرأة كفتاة وزوجة وأم، وجعل الجنة تحت أقدام الأمهات. والمرأة فى نظر الإسلام مخلوقة من مخلوقات الله مثل الرجل، لها احترامها، وهى إنسانة حرة كما أن الرجل إنسان حر، وهى تتمتع بحقوق وواجبات متعادلة مع حقوق وواجبات الرجل، وتغاير المسئوليات التى تتحملها المرأة ترجع إلى تغاير طبيعتها البيولوجية . يرى الإسلام أن المجال الأول لأداء المرأة ودورها الطبيعى هو

البيت، ترعى زوجها وتربى أولادها فى مناخ من العطف والحنان، وتنشئتهم نشأة دينية . ومع ذلك فإن الإسلام لايجبر المرأة على أن تسير حسب قائمة أعمال رتيبة تنحصر فى الحمل والرضاع، وإنما يفسح لها المجال لأن تعمل وتمارس التجارة والزراعة، شريطة عدم الخروج عن التزاماتها الدينية ولا تتخطى العفة، ولا تخلع رداء الحياء . إن الإسلام لا يحتكر الفكر والثقافة للرجل وحده، وإنما يترك للمرأة أيضاً مجالاً للعلم والتعليم . وفى مجال الحرية المالية، يعطى الإسلام كامل الحق للمرأة فى التصرف فى أموالها، فهى تبيع وتشترى، وتدير أموالها كيفما تريد .

كانت أوروبا فى القرون الوسطى يسودها المجتمع الاقطاعى بعد أن حل محل مجتمع الرق والعبيد الذى لازم الحضارة الرومانية . كان الإقطاعى / سيد الأرض له مطلق التصرف على أرضه ومن عليها من رجال ونساء ، من جميع النواحى بما فيها الاستمتاع بالنساء اللاتى فى حوزته. كتب بوعلى ياسين فى كتاب «الثالوث المحرم»: (كان للإقطاعى حق الليلة الأولى ، أى أن يضاجع كل عروس من أتباعه قبل عريسها ، وله أن يتنازل عن هذا الحق مقابل دفعة مالية . ويبدو أن هذا الحق موروث عن اعتقاد قديم بوجود خطر سحرى جسيم إذا أسال الرجل دم زوجته ، وأن الطريقة الأفضل لتجنب هذا الخطر دون خوف هو اللجوء إلى شخص ثالث مألوف بأنه ذو قوى سحرية تمكنه من مجابهة هذه الأخطار دون خوف) . إلى جانب ذلك كانت الدعارة فى المدن الأوربية من الحرف المنظمة التى تلقى حماية من قبل الإقطاعيين والأمراء المعنيين . بعد الاكتشافات الجغرافية ، ووصول السفن الأوربية إلى أستراليا وأمريكا والجزر القريبة من هاتين القارتين ، وبعد زيادة التجارة بين العالم القديم والعالم الجديد، ظهر المجتمع البورجوازى الذى حل بدوره محل المجتمع الإقطاعى . تصدت البورجوازية منذ القرن الثامن عشر للجمود الكهنوتى، وظهر الفلاسفة الشكاكون بأفكارهم التحررية للدين وقوانينه الأخلاقية ، وتطورت المسيحية المتزمتة تجاه المرأة ، فنالت مجالا أوسع من الحرية التى كونت بذرة المناداة بالمساواة مع الرجل والتى برزت فى صورتها الكاملة فى النصف الثانى من القرن العشرين .

إذا قفزنا بالزمان عشرة قرون واتجهنا إلى مصر المحروسة نجد أن المؤرخ عبد الرحمن الجبرتى يكتب عن حياة مصر فى القرنين السابع عشر والثامن عشر، ويسجل حياة مصر الاجتماعية لهذه الفترة . كانت مصر يعيش فيها مجتمع يتكون من طبقتين، الأولى هى طبقة الحكام من الأتراك والمماليك، والثانية هى طبقة المحكومين من الرعية . كانت شوارع القاهرة ضيقة كثيرة التعاريج، ولم يكن بها سوى أربعة ميادين أهمها ميدان بركة الأزبكية التى كانت تحيط به القصور البديعة التى يسكنها الأمراء والأعيان وكبار رجال الدولة، وكانت هذه المنطقة تعتبر الحى الأرستقراطى المفضل لأكابر مصر . وفى أيام فيضان النيل كانت الأزبكية تمتلئ بالمياه فتصير كبحيرة يتنزه فيها الناس بالزوارق فى النهار والليل، وفى المساء توقد المصابيح من البيوت المطلة عليها فتشكل صورة خلابة للناظرين، خاصة فى ليالى الصيف المقمرة.

خضع المجتمع المصرى فى القرن الثامن عشر لتقاليد أثرت على المكانة الاجتماعية للمرأة ودورها فى المجتمع ، فكانت هذه التقاليد تحرص على صون المرأة والحفاظ عليها ، وبالرغم من ذلك ظهرت طائفة قليلة من النساء نالت مكانة اجتماعية مميزة . كانت توجد فى المجتمع المصرى أربع طبقات من النساء ، الأولى تحتوى على نساء علية القوم والمماليك والحكام والأتراك وكن يقضين حياتهن فى مباهج ومسرات الحريم ، والطبقة الثانية تحوى زوجات وبنات الطبقة العاملة من أبناء الريف والحضر ، وكن إما متفرغات لأعمال المنزل أو يمارسن الأعمال القاصرة على النساء ، أو يساعدن أزواجهن فى العمل فى الحقل فى الريف المصرى . وتشمل الطبقة الثالثة الجوارى والخدم ، أما الطبقة الرابعة فهن الراقصات والغوازى البغايا اللاتى يعترف بهن المجتمع ، وكان الحكام يفرضون عليهن ضريبة .

أما عن البيت المصرى فكان يخصص القسم الأعلى من المنزل مسكنا للحريم، وهو مكان له حرمته ولا يتردد عليه إلا الأزواج ، ولا تفتح أبوابه لرجل غريب بخلاف الطبيب الذى يستدعى فى الحالات العاجلة والحرجة فقط . وإذا خرجت المرأة من بيتها فينبغى أن تكون متدثرة بدثار كبير فضفاض ، مع غطاء الوجه

– البرقع – الذى يحجب الوجه كله عدا العينين ، وبعض النساء يلبسن الحبرة لتغطية الجسم كله، ولاتكشف المرأة عند خروجها إلا عن عينيها وأطراف أصابعها. كانت أغلب النساء يذهبن إلى الحمام للاستحمام والتدليك ، وكانت هذه العادة تعتبر نوعا من التسلية التى تنعم بها النساء . كانت المرأة فى جناح الحريم تقضى وقت فراغها فى الطرب والمرح وتستمع إلى قصص وروايات الجوارى والمربيات ، وأحيانا يدخل الغوازى للرقص والغناء على صوت الدفوف والعود . فى بعض الأحيان كانت المرأة المصرية من الطبقة الغنية تخرج للنزهة على النيل ولكن بصحبة حارس خاص من العبيد ، ولكن نادرًا ما تخرج المرأة ليلا . حرمت المرأة من الالتحاق بالمدارس بسبب الجمود العقلى الذى ساد البلاد فى هذه الفترة ، ولكن كان الكثير من نساء القاهرة يعرفن القراءة والكتابة، وكان يسمح للفتاة الصغيرة السن بدخول الكتاتيب فى بعض الأحيان ، كما كانت الطبقة العليا تعلم بناتها على أيدى مدرسات خصوصيات فى المنزل .

جاءت الحملة الفرنسية إلى مصر فى نهايات القرن الثامن عشر ، وبدأ معها سفور النساء فى مصر. وصف الجبرتى ما أصاب بعض نساء القاهرة من الانطلاق نتيجة مخالطة المصريين للفرنسيين ومحاكاتهم فى الزى والسلوك: (ومنها تبرج النساء، وخروج غالبهن عن الحشمة ، والحياء ، وهو أنه لما حضر الفرنسيين إلى مصر ومع البعض منهم نساؤهم ، كانوا يمشون فى الشوارع مع نسائهم ، وهن حاسرات الوجوه لابسات الفستانات ، والمناديل الحرير الملونة ، ويسدلن على مناكبهن الطرح الكشميرى ، والمزركشات المصبوغة ، ويركبن الخيول ، والحمير ، ويسوقونها سوقا عنيفا ، مع الضحك ، والقهقهة ، ومداعبة المكارية معهن ، وحرافيش العامة ، فمالت إليهم نفوس أهل الأهواء من النساء الأسافل ، والفواحش فتدخلن معهن لخضوعهم للنساء وبذل الأموال لهن ، وكان ذلك التداخل أولا مع بعض احتشام وخشية عار ، ومبالغة فى إخفائه ، فلما وقعت الفتنة الأخيرة بمصر ، وحاربت الفرنسيس ( بولاق ) ، وفتكوا فى أهلها وغنموا أموالها ، وأخذوا ما استحسنوه من

النساء ، والبنات صرن مأسورات عندهم ، فزيوهن بزى نسائهم ، وأجروهن على طريقتهن فى كامل الأحوال فخلع أكثرهن نقاب الحياء بالكلية ، وتداخل مع أولئك المأسورات غيرهن من النساء الفواجر ، ولما حل بأهل البلاد من الذل والهوان ، وسلب الأموال ، واجتماع الخيرات فى حوزة الفرنسيين ومن والاهم ، وشدة رغبتهم فى النساء، وخضوعهم لهن ، وموافقة مرادهن ، وعدم مخالفة هواهن ، ولو شتمته ، أو ضربته بناموستها ، فطرحن الحشمة ، والوقار والمبالاة ، والاعتبار ، واستملن نظراءهن واختلسن عقولهن لميل النفوس إلى الشهواء ، وخصوصا عقول القاصرات ، وأما الجوارى السود فإنهن لما علمن رغبة القوم فى مطلق الأنثى ذهبن إليهم أفواجا فرادا وأزواجا فنطن الحيطان ، وتسلقن إليهم من الطيقان ودلوهم على مخبآت أسيادهن وخبايا أموالهم ، ومتاعهم وغير ذلك ) . لقد تغير وضع المرأة فى مصر فى عام ١٨٠٠ م ، فقامت ما أسماها المؤرخ لويس عوض «ثورة الحريم » خاصة فى مدينة القاهرة ، تطالب بتحرير المرأة . ومرت الأيام وجاء القرن العشرين ، وعرفت المرأة في مصر السفور، وقامت جمعيات نسائية تدعو إلى مساواة المرأة مع الرجل ، ونالت المرأة حريتها ، وقبل نهاية الألفية الثانية ظهر خط آخر من انتشار الحجاب والنقاب ، وغطت النساء رؤوسهن – غير مرغمات من الرجال – وتستمر المسيرة فى مستقبل مجهول لا يعلمه إلا الله .